الفصل الثاني عشر

الأدب الصهيوني إستعلاء وعنصرية ودعوة للعنف والقتل

الفصل الثانى عشر

الأدب الصهيوني إستعلاء
وعنصرية ودعوة للعنف والقتل

التحدث باللغة العبرية هو من أعقد المشاكل التى تواجه اليهود القادمين من البلاد الغربية حيث أنه من الصعب عليهم نطلق بعد الحروف العبرية كالعين والحاء والقاف، وهذه كلها حروف صعبة النطق بالنسبة للمتحدثين باللغات الآرية، ولكن بمجرد وصول المهاجرين الى الأرض المحتلة تبدأ مرحلة هامة وشاقة وهى تلقينهم اللغة العبرية لكى يندمجوا فى المجتمع الإسرائيلى ويتحدثون لغته، وفى السنوات الأخيرة، وبعد سقوط الإتحاد السوفيتى، وفد إلى إسرائيل عشرات الآلاف من اليهود الروس وكونوا لأنفسهم مجتمعا جديدا خاصا بهم داخل المجتمع الإسرائيلى، يتحدثون فيما بينهم باللغة الروسية، ويصدرون صحفا ومجلات مكتوبة بالروسية ويمارسون حياتهم العادية كما كانوا يمارسونها فى بلادهم الأصلية، ونشروا فى أماكن تواجدهم الحانات التى تقدم فيها الفودكا والراكيا وغيرها من الخمور الروسية، والكثيرين منهم لا يذهبون إلى المعابد ولا يمارسون الطقوس الدينية حتى الآن، والعديد من هؤلاء مازالوا يكتبون أدبهم باللغة الروسية، ويعرضون على مسارحهم التمثيليات باللغة الروسية، ولكن المهاجرين القدامى الذين أتقنوا اللغة العبرية حريصون على أن يصدر إنتاجهم الأدبى باللغة العبرية، ولقد لعب الأدب الصهيونى منذ إنبعاثه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دورا خطيرا فى التمهيد لظهور الدولة العبرية، والترويج للصهيونية السياسية، ووفرت لها كل أسباب الرواج والذيوع.

وقد ظهر هذا الأدب فى الأماكن المتفرقة التى كان يعيش فيها اليهود وبلغات الشعوب التى عاشوا بينها، وقد إتجه هذا الأدب القديم من خلال نتاجاته الشعرية والقصصية والروائية إلى مخاطبة اليهود من أجل الإلتفاف حول فكرة الإنبعاث القومى والتبشير بالصهيونية السامية قبل أن تختمر فى خيال هرتزل فكرة الدولة اليهودية. وهكذا حاولت الصهيونية

الأدبية ما وسعتها المحاولة أن تشد اليهودى أينما كان وحيثما وجد إلى هذه الفكرة، فشحذت كل أسلحتها وحشدت كل إنتاجها لتلقى به فى خضم هذه المعركة من أجل كسب الأنصار للصهيونية حتى قبل أن تظهر، ولكى تنجح فى هذه المهمة، لجأت فى بداية الأمر إلى التركيز على العامل الدينى والتوراة. ومن خلال هذا التركيز كان لابد أن يؤدى ذلك حتما إلى إستخدام هذا العامل كمدخل إلى أمور أخرى تسعى إليها الصهيونية الأدبية، وكان من الطبيعى أن تنبثق عنه فكرة «شعب الله المختار وأرض الميعاد».

كان التركيز على هذه الفكرة الصهيونية ضروريا بالنسبة للصهيونية الأدبية لكى تتيح البذرة التى بذرتها خلال معطياتها أن تنمو فى أرض خصبة زاد فى خصوبتها الحديث عن معاناة اليهودى فى الجيتو وداخل الجيتو،- الأماكن التى عزل فيها اليهود أنفسهم عن الآخرين، واضهادهم على يد الأغيار الذين لا تأخذهم باليهود رحمة ولا شفقة، لذلك تعددت صور الأدب الصهيونى القديم وصب فى هذه الاتجاهات:-

الدعـــوة للخـــلاص:

من الطبيعى أن يكون الإضطهاد والمعاناة هما جوهر الفكر الصهيونى والمحور الذى يدور حوله كل نتاج أدبى صهيونى من نثر وشعر ورواية، فالتيه هو حجم الأرض التى يصطلى اليهود بنارها وأرض الميعاد هى الجنة التى ينبغى أن يسعى اليهودى اليها لكى ينعم بعسلها ولبنها ويعيش بين خيراتها، وبدأ الأدباء الصهاينة من خلال أدبهم يدعون للتخلص من وصمة الذل والعار والضياع والاضطهاد التى يلقاها اليهود على يد الأغيار، ولا يمكن أن يتحقق الخلاص والنفس اليهودية خائفة مرتجفة تعيش الخنوع والإستكانة والذل وتتقبل الإضطهاد راضية، ومن هنا لجأت الصهيونية الادبية إلى استخدام إنتاجها من أجل نفخ القوة والثقة فى النفس اليهودية الخائفة المرتجفة والمضطربة، أى محاولة شد اليهودى الى التأزم والإنفعال المستمر عن طريق إثارة النوازع النفسية والخوف من المنفى ثم الإنتقال الى تحريضه على التمرد على واقع الجيتو والانتقال من موقع الدفاع الى موقع الهجوم، وهذا يتطلب جرأة وشجاعة للتحول الى بطل، ومن هنا يمكن أن نفسر أساليب التعبير التى

إستخدمها هذا الأدب، ويمكننا فى ضوء ذلك أن نتصور التنويع الذى ينسجم بداهة مع تعدد الأهداف التى سعى إليها من حيث الأهمية والمراحل التى قطعها فى النقاط التالية:-

١ - **أدب التراث**:- إنطلق هذا النوع من الأدب مستندا إلى الأسطورة الدينية والتراث الدينى المستمد من التوراة والتلمود وما يتفرع عنهما من موضوعات عن شعب الله المختار وأرض الميعاد والهيكل .

٢ - **أدب الرثاء** أو بعبارة أخرى أدب البكاء والنواح الذى يجسد روح المنفى ويحكى قصة معاناة اليهود فى ظل الإضطهاد وفى الجيتو ومحاولة المبالغة والتهويل فى وصف هذه المعاناة وإجترار الآلام إستدرارا للعطف، ثم محاولة إستثمار ذلك للتحريض على الأغيار المضطهدين والتفوق عليهم واستخراج نزعة السمو والتعالى من عقد الضَعَةْ والهوان.

٣ - **أدب الحنين الى الأرض**:-

وهذا النوع من الأدب دأب على إستخدام كل أنواع التعبير بين الرواية التاريخية والشعر والقصة من أجل تأكيد المقولة التى تدعى الملكية التاريخية لليهود فى فلسطين، وذلك بالحديث عن العودة إلى صهيون باعتبارها الملاذ.

٤ - **أدب المقاومة**:-

إستهدف هذا الأدب خلق نموذج من اليهودى المتمرد على واقع الجيتو، اليهودى البطل المتفوق الذى يتحلى بخصائص وصفات مقصورة عليه ولا توجد فى غيره، وكان رواد هذا النوع من الأدب الشعراء الصهاينة وكتاب القصة والرواية، سواء ما كتب منها باللغة اليدشية (لغة يهود المنفى) أم العبرية من أمثال آحاد هعام وبياليك وبيرسى سمولتكن وهس والذى يعنينا فى المقام هو النوع الأخير من الأدب نظرا لدوره الخطير فى التعبئة الحاقدة على الأغيار، وشحنه للنفس اليهودية بشحنات الحقد المعززة بالدعوة الى الاعتقاد بتفوق اليهود على كل بنى البشر، وكان هدف هذا النوع من الأدب هو إنتشال اليهودى من وهدة الضياع والاستكانة ودفعه الى موقع المقاومة والتصدى للإضطهاد الذى يتعرض له وتوصيله الى مرحلة البطولة حسب المواصفات التى حددها هذا النوع من الأدب للفرد وهو أن يكون

شخصا مندفعا مغامرا خارقا فى بطولته لا يشق له غبار فى مقاومة الأغيار ولا يعرف الشفقة والرحمة ولا التسامح معهم.

وهكذا رسم رواد الأدباء الصهاينة من خلال إنتاجهم الأدبى سمات الشخصية الصهيونية ذات النزعة العدوانية من خلال التركيز على البطولة اليهودية وما تعنيه من ممارسات وقواعد سلوكية عدوانية، وروجوا للعنصرية العرقية بتأكيدهم دائما على تفوق اليهودى وسموه وتميزه، وسوف نورد هنا نماذج من هذا الأدب الذى يصور البطل اليهودى قبل أن يولد وتحديد صفات وميزات الشعب ونسبة ملاحم وهمية له، وإنصب هذا الأدب وسعى إلى غايته فى خلق صهيونية عدوانية وخلق الفرد الصهيونى، وعليه فإن هذا الأدب الصهيونى بكل صوره سواء أكانت روائية أو غيرها قد إنطلق من فراغ ليصل الى هدفه الأسمى وهو بلورة قاعدة سلوكية عنصرية لليهودى وترك بصماته على التكوين النفسى لليهود، ولذلك امتلأ بالشعارات التى يغص بها إنتاج اليهود الأدبى مثل «الشعب المختار» ومن مثلك ياشعب إسرائيل بين الشعوب» «وإقتلوا الأغيار دون شفقة أو تردد» «وبادر الى قتل من يضمر لك السوء» إلخ. وهذه هى مادة التربية الأدبية التى تهدف الى شحن النفس اليهودية بشحنات من العقد والتعالى

أمثلة من الأدب الصهيونى العنصرى:-

جسد الأديب الصهيونى «شالوم عليخوم» ومعنى اسمه باللغة العربية السلام عليكم- فى روايته بائع الحليب صراع اليهودى فى المنفى، ففى الفصل الأول من الرواية يظهر طوبيا بائع الحليب وهو يجوب القرية ليوزع الحليب على أهلها، يستبد به شعور الخوف ويعذبه، فأبناء القرية ناكرون للجميل ويتربصون به الدوائر ويكيدون له ويسعون الى هلاكه رغم ما يؤديه لهم من عمل خير وحين يشعر بشبح الخطر يطارده أينما ذهب، يلجأ إلى شيخ القرية بروبولو يلتمس عنده الأمان، ولكن هذا الشيخ رغم جبروته وسطوته لا يوفر له الأمان المنشود، فيعود كسير النفس الى منزله وهو يرتعد خوفا على بناته السبع من أبناء القرية، اللذين لا تأخذهم به ولا بأفراد أسرته شفقة ولا رحمة، وفى هذا الفصل يصور كاتب الرواية- شالوم عليخوم- طوبيا بائع الحليب اليهودى فى صورة البائس الخائف دائما من المحيط

الإجتماعى الذى يحيط به والذى يكيد له كيدا ويسعى الى الفتك به واستعباد بناته السبع، والشيخ صاحب السلطة فى القرية لا يفعل شيئا لإنقاذه، وهنا يفكر طوبيا فى حل لمشكلته.

ويستطرد كاتب الرواية فى تصوير أحداث روايته ليصل إلى الهدف الذى يريده منها، وينتقل بالأحداث الى صورة أخرى فى الفصل الأخير، صورة طوبيا بعد أن تغلب على خوفه وقرر أن يواجه التحدى بالتحدى، فينصب قامته وينفض عن نفسه غبار الخوف ويقرر مواجهة أهل القرية، وأمام هذه الشجاعة يتراجع أهل القرية، وبعد ذلك يقرر طوبيا الهجرة الى أرض صهيون مع بناته السبع اللاتى لا يجدن عرسانا فى القرية، ويجد فى الأرض الموعودة الملاذ والأمان والعرسان لبناته.

ومر الأدب اليهودى بعد ذلك فى مرحلة تطور أخرى فليس من مصلحة الصهيونية تصوير يهود المنفى دائما على أنهم قوم مقهورون مطأطىء الرءوس دائما وضحايا الخوف، بل يرقى لتصوير اليهودى على أنه المتفوق المتميز عنصريا على سائر البشر من الأغيار، وبدأ رواد الأدب الصهيونى يتعهدون اليهود بنشأة جديدة أساسها غرس الشعور بالثقة والقوة والسمو والتحرر من عقدة الضعف والضعة والخنوع التى تحكمت فيهم فى المنفى، ويتكفل الأدب اليهودى فى هذه المرحلة بخلق اليهودى البطل الذى لا يعرف الخوف ولا تقف فى طريقه قوة، ونذكر فيما يلى مثال لذلك فى شعر مناجم بياليك شاعر الصهيونية الأدبية، ومن خلال شعر مناحم صور اليهودى بصورة البطل الذى يتحدى الخوف غير هياب ولا وجل، وهذا نموذج من شعره:-

شعب لا يرهب ولا يتزحزح، لا يخاف

عدوه ليس أسدا هصورا

الأصوات لا تخيف، فالرجال أبطال شجعان

يتحدث البطل ويحطم الأغلال ويسمو بالشعب ولو سفك الدم فشعبنا يده طولى دائما ويسير شاعر صهيونى آخر على نفس الدرب وهو شمعون هالكن نختار من قصيدة له هذه الأبيات:-

هلا كنتم كالآباء تحديا
ياحراس المزامير المقدسة
أنتم ضحايا الجيتو
تتفوقون على الأغيار
فأنتم معجزة
مهما تريدون يكون

وهكذا راح الأدب الصهيونى يتغنى بالبطولة والأبطال اليهود قبل ظهور الصهيونية السياسية والى الإغراق والتهويل فى الحديث عن صفات هذا البطل، وعن تفرده بالبطولة والحط من شأن الأغيار، وراح فى نفس الوقت يروج لعنصرية أدبية لم يكن أدبا إنسانيا وجد لخدمة أهداف إنسانية، بل هو فى مجمله عنصرى الجوهر والبناء، لحمته العنصرية وسداه الشوفينية.

إن الأدب وهو نتاج لعمليات فكرية إنسانية لا يمكن أن يتحول إلى أداة تحريض على القتل وعلى إحتقار الآخرين والتعالى عليهم.

وقد سار النثر الصهيونى أيضا فى هذا الطريق، فمثلا إنبرى الأديب والفيلسوف الصهيونى آحاد هعام ليمجد البطولة والإندفاع والقوة المقرونة بالإعتداء على الآخرين وذلك عبر كتابه «رسائل ومقالات آحاد هعام» التى يقول فيها:- إن شعبنا وهو يبحث عن وطن قومى ويتلمس الطريق إلى حياة قومية خاصة به، ليكون قدوة للآخرين ومنارة للأغيار يندفع الى مواجهة الخطر بخطوات جريئة قوية، إنه يجهز على العدو غير هياب ولا وجل، حتى ولو كان أقوى منه عدة وعددا، إنه يلقى بنفسه فى عرض البحر وهو عاصف مائج، الجرأة هى النبراس الذى يضىء طريقه، والقوة هى التى ترهب الأغيار، ومن مثل شعبنا أحوج إلى القوة التى تجعل من مبدأ «لا تخش عبيدك يايعقوب» مبدأ ذات معنى عملى.

إذا فالبطولة والشجاعة فى مثل هذا الأدب هى بهدف تربية اليهود تربية عدوانية عنصرية تتخذان من العاطفة وإثارة الخيال والتحريض على العدوان بل على القتل وتغذية الروح بالعنصرية سندا وركيزة، هذا ما فاض به الأدب الصهيونى وهو ما يزال فى الشتات

(الدياسبور)، ومع بدء تدفق موجات المهاجرين اليهود الى فلسطين تحت تأثير التحريض والحث المتواصل، وإستجابة للدعوة التى أطلقها هرتزل، بدأ هذا الأدب يهاجر من الشتات الى فلسطين، ويمارس دورا أخطر مما كان يمارسه فى الشتات، إذ أخذ يضطلع بوظيفة دعائية وسياسية بلا حدود ولا قيود وعبر وسائل إتصال جماهيرى أوسع، وجندت الحركة الصهيونية هذا الأدب وطوته تحت أجنحتها بعد إعادة تشكيله فى إطار تنظيمى لخدمة أهداف الحركة الصهيونية، ويحاول أن يسهم فى بلورة الشخصية الصهيونية بصفاتها الجدية ومواصفتها المتميزة، واندفع هذا الأدب بعد الهجرة يشيد بالرواد الأوائل المهاجرين فى الهجرتين الأولى والثانية، ويغالى الى حد الخيال فى وصف تسجيل إرادته فى مواجهة التحديات، كما يسمى البدء فى بناء المستوطنات وتجفيف المستنقعات ومصارعة المرض وقهر الطبيعة عملا بطوليا، ويفاخر بتخلصه من سلبيات الشتات وشفاءه من عللها وخصوصا الخنوع والذل، وظل الحال هكذا حتى الثلاثينيات من القرن العشرين حيث بدأ يتحدث عن اليهودى ذى المزايا الإيجابية والكفاءة والإرادة والقدرة الفائقة على أداء المهمات وفعل المعجزات، ثم اليهودى البطل الذى يهزم كل من يحاول أن يقف فى طريق عمله وهو يسعى الى إقامة وطنه القومى، وهنا أيضا حاول هذا الأدب ما وسعته الحيلة التركيز على صفة البطولة الجماعية والمشتركة التى تجاوزت البطولة الفردية.

الأدب الصهيوني بعد عام ١٩٤٨:-

بعد زرع الكيان الصهيونى الإغتصابى على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ واصل هذا الأدب- على الرغم من كثرة الأدباء واتساع رقعة الإنتاج الأدبى بأشكاله وأنواعه- تأدية مهمة التحريض وإذكاء نار الحقد والعنصرية، فقصص موشيه شامير- وهو قصص روائى، وروايات سى يزهار وشعر حورى والتمان ومسرحيات وروايات أهرون ميجيد التى حفل بها الشارع الأدبى الصهيونى كان لها دورها فى بلورة السلوك العدوانى للمجتمع اليهودى بأفراده وجماعاته، فهذا الأدب يصف القتل- الذى لا يسلم منه حتى النساء والأطفال- على أنه بطولة تستحق التقدير وأنواط الشجاعة، وهذا الأدب الصهيونى حاول أن يصنع من اليهودى سوبرمان لا يضاهيه فرد فى الدنيا، ولا يصل إلى مرتبته أحد، أى أن هذا المستوطن كما

يقول شامير يظل يندفع الى الأمام فيهرب منه الأغيار، ولا شيء يوقفه حتى الموت، وحتى الموت لا يجد سبيلا غير أن يحنى رأسه أمام هذه البطولة.

وتوجد من نحو هذا الأدب أمثلة كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكرها، وهذه الأمثلة تعد دليلا ونموذجا على عنصرية هذا الأدب ذى المنحى العدوانى الذى لعب دوره ومايزال فى تبرير العدوان والجريمة، والترويج للأفكار العنصرية والشوفينية التى تحط من شأن الآخرين، وتسفه كيانهم ووجودهم فى نفس الوقت الذى تعمل فيه جاهدة على تمجيد الذات اليهودية.

وقد أذكت هزيمة جيوش الدول العربية فى حرب الأيام الستة أمام الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ فى إذكاء هذا الشعور وتأكيده، ففى هذه الحرب لم تقاتل الجيوش العربية الجيش الإسرائيلى ولو فى معركة واحدة يشار إليها بالبنان، بل إنهزمت جميعها دون حرب أمام الإسرائيليين واستولى الإسرائيليين نتيجة لهذه الحرب على الضفة الغربية والقدس وسيناء والجولان فى فترة زمنية لا تذكر، وهلل الغرب كله لهذا الإنتصار الذى تم بدون مجهود، وروج اليهود آنذاك الفقرة التى وردت فى التلمود وهى «عبيدك يايعقوب يهربون أمامك». فارتفعت الروح المعنوية الصهيونية الى القمة، وأثبت الأدباء الصهاينة أن كل ما كتبوه من أدب كان صحيحا، وأنهم لو أرادوا إحتلال باقى الأراضى التابعة للدول العربية المحيطة بإسرائيل ما إستعصت عليهم، وتوالت عليهم المنح المالية من كل حدب وصوب لتساعدهم على بناء المستوطنات فى الأرض التى إستولوا عليها، وبعد ذلك إستطاعوا أن يبثوا المستوطنات فى كل مكان فى الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة بهمة وروح المنتصر وبتشجيع ومباركة من دول أوروبا وأمريكا.

وما يحدث فى أيامنا هذه من حصار وتجويع وسفك دماء الفلسطينيين وهدم منازلهم والإستيلاء على أراضيهم وقصف الأهالى العزل برا وبحرا وجوا، والإعتداء على الأطفال وقتلهم والتمثيل بجثثهم، مع مباركة جميع طوائف الشعب الإسرائيلى لهذه الأعمال الإجرامية التى يقوم الجيش والمستوطنون، كل هذا دليل على ما ذكرنا هنا من تشكيل الشخصية اليهودية على العدوان والعنصرية وسفك الدماء وسلب ممتلكات الغير، ومما يثير

الدهشة تصريح كبير حاخامات اسرائيل ورئيس حزب شاس الدينى بأن «الرب قد ندم لأنه خلق العرب» حاشا لله سبحانه وتعالى، ووصف العرب بأنهم أنجاس الموت لهم أفضل من الحياة.